# الباب الأول

## التعريف بالقاسمي

واشتمل على فصلين:

**الفصل الأول**: تناولت فيه العصر الذي عاش فيه القاسمي.

واشتمل على ثلاثة مباحث:

**المبحث الأول**: الحالة السياسية وعلاقة القاسمي بولاة عصره.

**المبحث الثاني**: الحالة الاجتماعية والاقتصادية، وموقف القاسمي منهما.

**المبحث الثالث**: الحالة العلمية.

**الفصل الثاني**: **جعلته في السيرة الذاتية للقاسمي.**

**واشتمل على خمسة مباحث:**

**المبحث الأول**: اسمه، نسبه، كنيته، لقبه.

**المبحث الثاني**: مولده، نشأته، ثقافته.

**المبحث الثالث**: صفاته، وأخلاقه، مذهبه، عقيدته.

**المبحث الرابع**: شيوخه، مكانته العلمية.

**المبحث الخامس**: آثاره العلمية، تلاميذه، وفاته.

# الفصل الأول

## العصر الذي عاش فيه القاسمي

واشتمل على ثلاثة مباحث:

**المبحث الأول**: الحالة السياسية، وعلاقة القاسمي بولاة عصره.

**المبحث الثاني**: الحالة الاجتماعية والاقتصادية، وموقف القاسمي منهما.

**المبحث الثالث**: الحالة العلمية.

# المبحث الأول

## الحالة السياسية وعلاقة القاسمي بولاة عصره

**الحالة السياسية:**

عاش القاسمي -رحمه الله- جلَّ حياته في أشد أيام الظلام والظلم، وُلد ونظام الحكم المطلق قائم في الدولة العثمانية... وكانت البلاد الشامية جزءًا منها، فالحريات مفقودة، والعقول مقيدة، والأقلام مغلولة، والصحافة على ضعفها وقلتها مكبلة، والأحرار مطاردون، والدستور معلق، والمجالس النيابية معطلة، والناس يحاسبون على الهمسة والنبسة، والجاسوسية تفتك بالأبرياء، أما العدالة فمفقودة لفساد النظام القضائي وشراء مراكز القضاء، وانتشار الرشوة علنًا بين موظفي السلطة العامة والمواطنين[1].

وُلد القاسمي والدولة العثمانية تتكالب عليها المكائد من كل اتجاه من العالم الغربي، وحتى من ولاتهم أنفسهم حتى أنهكت قوتها، وأصبح يطلق عليها -كما يقولون- الرجل المريض، وكان نظام الحكم في هذه البلاد يتكون من سلطات ثلاث بيدها مقاليد الحكم وهي:

**[١] الوالي:**

وهو نائب السلطان وتقوم وظيفته بإبلاغ أوامر السلطان إلى عمال الحكومة والإشراف على تنفيذها وعليه جمع الضرائب وإرسال المقررات المفروضة إلى الخزانة العامة بالقسطنطينية وإرسال المؤن والكسوة إلى الحرمين الشريفين، وكذلك الإشراف على سك النقود وحفظ الأمن العام.

---

(1) مقدمة ظافر القاسمي لقواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ت جمال الدين القاسمي، تحقيق وتعليق: محمد بهجة البيطار صـ٢١، نشر دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي مصر، ط٢/ ١٣٨٠هـ، ١٩٦١م.

[٢] الديوان:

ومهمته النظر في الشئون الاقتصادية والإدارية، ولا يجوز للوالي أن يتخذ قرارًا في أمر من الأمور إلا بعد الحصول على موافقة الديوان.

[٣] السناجق:

وهم حكام الأقاليم وكل واحد منهم يباشر رياسة جميع الشئون الإدارية والاقتصادية، وهم من المماليك ورئيسهم في مصر سنجق القاهرة، وفي الشام سنجق دمشق، وهو يلي الوالي في الأهمية ويشغل مكانه عند عدم وجوده.

وتبعًا لهذا التقسيم قسمت سورية إلى ثلاث ولايات: هي ولاية حلب، وولاية دمشق، وولاية طرابلس، وتضم كل منها عدة سناجق، وقد جعل لولاية دمشق الإشراف على الولايتين الأخريين[١]، وقد ظلت دمشق يتناقل إلى ولايتها والٍ بعد آخر من قبل السلطان عبد العزيز[٢] الذي عين محمد راشد باشا واليًا عليها، وذلك قبل مولد القاسمي بعام واحد سنة ١٢٨٢هـ، وكان هذا الرجل لينًا سهلاً قامعًا للظالمين محبًّا للعم وناشرًا له، ولم يكتف بذلك، بل اهتم بإصلاح

(1) موسوعة التاريخ الإسلامي، تأليف أ.د/ أحمد شلبي، جـ٥، صـ٢٨٦، طبع مكتبة النهضة المصرية طـ٨ سنة ١٩٩٠م.

(2) السلطان عبد العزيز هو السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثاني بن عبد الحميد، تولى بعد أخيه السلطان عبد الحميد من (سنة ١٢٧٧- سنة ١٢٩٣هـ)، وقد كان في أيامه أحداث منها: الحرب في الجبل الأسود (الصرب) التي انتهت بقتل الأمير دانيال، وتقليد ابنه -نقولا- مكانه، وأيضًا ثورة أهل كريت وإخماد عالي باشا لها، ومما يمتاز به السلطان عبد العزيز أنه زار القطر المصري خلافًا لعادة أسلافه، وأقام لجنة لتأليف مجلة الأحكام العدلية، ولكنه تحالف مع روسيا، فدست أعين الدول الأوروبية المكائد والوساوس في عقول أهل الأستانة حتى حملوا شيخ الإسلام خير الله أفندي بالفتوى على خلعه، فأفتى فخلعوه سنة ١٢٩٣، ينظر تاريخ دول الإسلام، تأليف/ رزق الله منقريوس الصرفي جـ٣ صـ١٦٥، طبع مطبعة الهلال بالفجالة سنة ١٣٢٦هـ، ١٩٠٨م.

أحوال بلاده الداخلية فأثمرت النهضة الأدبية في أيامه، وكثرت المدارس والمجلات والجرائد والمطابع وباعة الكتب.

كما راجت في عهده الحركات التجارية لتأمين الطرق والموارد، وفي أيامه حضر ملك النمسا لزيارة القدس وحضر للشام أيضًا البرنس فريد ريك ملك ألمانيا.

وكانت ولاية محمد راشد باشا خمس سنوات وُفق فيها لمحبة العموم، وفي زمنه شكل ديوان التمييز في دمشق وطبعت سالنامة الولاية وهي بمثابة تواريخ وقائع هذه البلاد، كما بنيت أكتاف نهر بردي.

هذا وقد تعاقب كثير من الولاة على ولاية دمشق في الحقبة التي عاش القاسمي -رحمه الله- وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى الضعف الذي لحق بالدولة العثمانية في هذه الحقبة، ففي سنة ١٢٩٢ تولى صبحي باشا ولم تظل أيام ولايته، ثم خلفه حالت باشا وبقي في الولاية سنة ونصف وخلفه أحمد حمدي باشا، وراشد ناشد باشا، وفي سنة ١٢٩٤ تولى عمر فوزي باشا، وفي سنة ١٢٩٥ تولى أحمد جودت باشا، وفي سنة ١٢٩٦تولى مدحت باشا، وفي سنة ١٢٩٧ تولى أحمد حمدي باشا مرة ثانية، وفي سنة ١٣٠١ تولى راشد باشا أيضا مرة ثانية، وفي سنة ١٣٠٤تولى نظيف باشا، وفي سنة ١٣٠٦عُين مصطفى عاصم باشا، وفي سنة١٣٠٨عين عثمان باشا المشير ولم تظل أيام ولايته، ثم خلفه إسماعيل كمال باشا في نفس العام، وفي سنة ١٣٠٩عين رءوف باشا الوزير، وفي سنة ١٣١١ عين عثمان فوزي باشا للمرة الثانية، وفي سنة ١٣١٢ عين حسن رفيق باشا، وفي سنة ١٣١٣ عين حسين ناظم باشا، وفي سنة ١٣٢٥ تولى شكري باشا، وفي سنة ١٣٢٧ تولى حسين ناظم باشا للمرة الثانية وظل في هذا المنصب إلى عام١٣٣٨.

وهكذا ظل الولاة يتعاقبون على ولاية دمشق واليا بعد آخر من قبل

الدولة العثمانية وكان هَمُّ معظم هؤلاء الولاة جمع الأموال، والجري وراء الشهوات[١].

**علاقة القاسمي بالولاة العثمانيين في دمشق:**

إذا نظرنا في علاقة القاسمي -رحمه الله- بولاة دمشق في عصره لوجدنا أن جُلَّ هؤلاء الولاة كان همهم الجري وراء الشهوات والطرب والملذات؛ حيث إنهم كانوا مُولَعين بالتقليد الأعمى للمفاسد الغربية فكانوا ما بين خمر ودخان وتشبه بالعالم الغربي، فهاج علماء الإسلام لذلك وعادوا هذا التقليد أكبر معاداة مما أغار صدورَ الولاة عليهم فقبضوا عليهم، وكان من بينهم شيخنا القاسمي الذي كان داعية للعلم والحرية ونبذِ التقليد الأعمى وإرجاع مجد الإسلام ورفع شأنه حتى اتهم بتأسيس مذهب جديد في الدين يسمى «المذهبَ الجمالي» فقبضت عليه الحكومة سنة ١٣١٣هـ وحققت معه.وكان من قصة ذلك أن فريقًا من العلماء اجتمعوا للمدارسة في العلم وبلغ عددهم العشرة تقريبا فوصل نبأُ اجتماعهم للوالي وذُكِر ذلك للمفتي، فعقد مجلسًا خاصًا في المحكمة الشرعية لمحاكمتهم، ودعوا للمحاكمة فوجهت للشيخ بدر الدين الحسني عدةُ تهم منها: جهره بتحريم الدخان، وذم ترك العمائم، وتشنيعه على الحيل في الربا، وقوله عن الخلافة أنها أصبحت ملكًا عضوضًا. ووجهت للشيخ توفيق الأيوبي تهمة القول بنجاسة أعيان المشركين فاستجوب وأطلق سراحُه، وأمّا المحاكمة الجادة فكانت للبقية وعلى رأسهم شيخنا القاسمي الذي بدأت المحاكمة باستجوابه وسؤاله عن آرائه في المذاهب وأصحابها، وقد أفرج عنه في اليوم التالي[٢] ولم يكتفوا من

(1) «منتجات التواريخ لدمشق» تأليف/ محمد أديب آل تقي الدين الحصيني ج١ ص ٢٩٦-٢٨١، نشر دار بيروت ط١ سنة (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م) بتصرف.

(2) تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري تأليف محمد مطيع الحافظ، ونزار أباظة =

القاسمي بهذا الاتهام بل اتهموه أيضا بالجمود.

وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على أنّ الشيخ القاسمي كان من العلماء العاملين الذين لا يقفون موقف المتفرج على المذاهب الأخلاقية لآداب الإسلام، وإنما وقف موقف المدافع المخلص عن دينه لا يخاف في الله لومة لائم.

=

تقديم د/ شكري فيصل ط ٣٠٠-٣٠١ طبع ونشر دار الفكر العربي بدمشق ط ١ سنة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.

# المبحث الثاني

## الحالة الاجتماعية والاقتصادية وموقف القاسمي منها

### الحالة الاجتماعية:

ظلت دمشق بعد تقلص سلطة المماليك عنها، ودخولها في حوزة العثمانيين في خمود وضعف شديدين، فلم تصبغ بصبغة مباينة للصبغة الأولى التي كانت عليها في ظل حكم المماليك لها، فقد استلمها آل عثمان وهي كغيرها من البلاد العربية كالمريض نظرًا لما تعاقب من تداول الدول، وانتياب الفتن الداخلية بين الأمراء والزعماء، وطرق الحروب والغارات الأجنبية، ثم الحروب التيمورية، كل هذه الحوادث لم تمهل دمشق أن تستوفي حظها من العمران وتُكونَ لنفسها هيئاتٍ اجتماعيةً تقوم بها فلم تكد تنشل من كبوة حتى يضربها الزمان، ولا تخلص من مرض إلا إلى أشد وأنكى. ومن العجب أن تلك المصائبَ - وإن عمت البلاد - إلا أن لدمشق النصيب والحظ الأوفر منها في الغالب ما عدا الحروب الصليبية.

يضاف إلى ذلك أيضا المصائبُ السماوية التي أثرت تأثيرًا بينًا في مدينة دمشق[1] فقد حدثت الطواعين بشكل متكرر في العهد العثماني، وشملت مناطقَ واسعةً من بلاد الشام وغيرها، كما عَمَّت الزلازل في هذا العصر، وقد ألحقت الكثيرَ من الدمار بالإنسان والحيوان من جراء تلوث المياه، وانتشار المجاعات، والمصائب المهلكة كلُ هذه الأشياءِ أدت إلى فناء خلق كثير[2] وفقدت بسببها الندوات، فلا جمعياتٍ إصلاحيةً ولا حلقاتٍ اجتماعيةً، ولا جمعياتٍ خيريةً.

---

(1) منتخبات التواريخ لدمشق ج ١ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ بتصرف.

(2) مظاهر سكانيةَ من دمشق في العهد العثماني بقلم د/ عبد الكريم رافق ص ٦ مقال نشر ضمن ملة دراسات تاريخية تصدرها لجنة كتابة التاريخ العربي بجامعة دمشق العددان ١٥، ١٦ سنة ١٩٨٤

والمرأة التي هي نصف المجتمع غائبةٌ عنه فليس لها في خدمته إلا نصيبُ قعيدِ البيت[١].

وهكذا استمرت الأحوال الاجتماعية في الدولة العثمانية وبخاصةٍ دمشقُ مرة تعلو ومرة تسفل تابعة في ذلك لهمم الولاة والحكام ورجال الأمر والنهي.

وفي هذا الجو الخانق المتخلف نشأ القاسمي فكان كالطائرِ المغني في غير سربه، غريبًا عن أهل الزمان، ولعل هذا كله كان أدعى لإقدامه والاقتناعَ بفدسية رسالته وضرورة العمل لها، والسعيَ لنشرها، والمضيَ في تبليغها[٢].

**الحالة الاقتصادية:**

يعد التنظيم الاقتصادي هو الهدف الأسمى للعثمانيين، وقد سار على النحو الذي كان متبعًا إبان عهد المماليك، وكان يقوم على مسح الأراضي في مصر وسورية وتخصيص مقدار منها للأجناد، ومقدار لنفقات الوالي، ومقدار للسناجق،وما عدا ذلك سمي بالأراضي الديوانية؛ أي التابعة للديوان الأعظم بالأستانة. وسار العثمانيون سيرة سلاطين المماليك في استغلال هذه الأراضي بطريقة الإلتزام بالمزايدة، بحيث يتعهد الملتزم بدفع مقدار محدد من المال كل عام عن مساحة محددة من الأرض يجتبي من فلاحي هذه الأرض ما يستطيع من أموال، وكان يشترك في المزايدة أغنياء المماليك وكبار التجار وبعض الموظفين، ومن الواضح أن هذا التنظيم كان قاسيًا جدًّا على الفلاح، وركز الثراء كله في أيدي الملتزمين وأيدي السناجق، فكان هؤلاء وأولئك سادة يَحْيَوْنَ في بذخ وترف، أما الفلاح فكان عبدًا يعمل بعنف ولا يكاد يجد الكفاف[٣]، أما بالنسبة للصناعة في بلاد الشام إبان الحكم العثماني فقد بلغت الطوائف الحرفية درجة

(1) مقدمة ظافر القاسمي لقواعد التحديث ص ٢٢

(2) المرجع السابق ص ٢٢

(3) موسوعة التاريخ الإسلامي ت د/ أحمد شلبي ج ٥ ص ٢٨٧، ٢٨٨

كبيرة من التنظيم، ولم تكن هذه الطوائف متساوية في العدد أو متشابهة في النوعية في مختلف مدن الشام في العهد العثماني، وذلك بسبب اختلاف كل مدينة عن الأخرى من حيث نشاطها الاقتصادي محليًّا ودوليًّا، ولم تكن هناك استمرارية في أنواع الطوائف في مدينة ما؛ فبعض الطوائف انقرض أو تضاءل شأنه بتناقص الحاجة إلى منتجاته، كما أن بعض الطوئف ازدهر وكثرت أنواعه نظرًا لازدياد الحاجة إليه، وقد بلغ عدد الصناعات التي وجدت في بلاد الشام ما يقرب من ٤٣٥ صنعة بعضها تضاءل شأنه وبعضها جديد محدث[١].

وقد تميز التنظيم الحرفي في بلاد الشام بالتخصص، وتوزيع العمل، فهناك طوائف عنيت بالإنتاج وأخرى بالخدمات أوبالتسويق وكان على رأس كل طائفة شخص عرف عادة بالشيخ وقد اختاره أعضاء الطائفة ونصبه القاضي الشرعي للحديث عنهم، وكان يشترط في هذا الرجل أن يكون ذا دين ومستقيمًا وقادرًا على أداء المشيخة وصالحًا لها.

وكانت تقوم علاقة بين الطوائف الحرفية نظرًا لتكامل الحرف المعينة أو لاعتماد حرفة على أخرى، وهكذا لعبت الطوائف دورًا فاق إلى حد كبير دور المحتسب الذي تضاءل شأنه في بلاد الشام في العهد العثماني وغاب في كثير من الأحيان عن الوجود. وقد لقي الفقراء والمفلسون من الحرفيين اهتمامًا ورعاية كبيرين.

وما لبثت الصناعات الحرفية في بلاد الشام في القرن التاسع عشر إلا وقاست منافسة البضائع الأوربية مما أدى إلى ضعف هذه الصناعات وافتقار أهلها وتضرر الاقتصاد المحلي بصورة عامة.

ولكن أصحاب الصناعات المحلية قد ردّوا على هذا التحدي وظهرت

---

(1) قاموس الصناعات السامية ت محمد سعيد القاسمي وجمال الدين القاسمي وخليل العظم تحقيق ظافر القاسمي ج ١ ص- ٣٠، نشر موتون وشركاه باريس - لاهاي، سنة ١٩٦٠

صناعات محلية تجمع بين المحلي والمستورد[١]، وهكذا أصبح الاقتصاد المحلي يدور في فلك الاقصاد الأوربي وترتب على ذلك حدوث تحولات اقتصادية واجتماعية عميقة في بلاد الشام.

**موقف القاسمي من الحالة الاقتصادية:**

لقد مرّ القاسمي بالحالة الاقصادية السيئة التي اجتاحت بلاد الشام وبخاصة دمشق بسبب كثرة الحوادث الطبيعية (الزلازل والبراكين) والتي أثرت في التربة الزراعية، فأنهكت قوتها وأوهنتها فكان لابدّ من إعادة القوة إليها وإصلاحها، فإذا بالشيخ القاسمي يقف موقف المرشد الزراعي فيبحث في ذرائع إصلاح الزراعة فينبه إلى السمادات الكيماوية أنواعها من الفسفورية والبتاسية التي تعيد للأرض حيويتها وقوتها، ونادى بضرورة استعمال الآلآت الميكانيكية الحديثة في الحرث والحصاد وبدلاً من الآلات البدائية من أجل تعويض الخسران التي اكتست البلاد ويلاته، وبحث أيضا عن علاج الآفات الأمراض والحشرات الزراعية وطرق مكافحتها، وذلك كله مُفَصّل في كتابه المخطوط المسمى «بتعطير المشام في مآثر دمشق الشام» الجزء الثالث[٢].

ومع أن كتب التراجم التي تناولت سيرة الشيخ القاسمي لم تذكر لنا أنه كان يحترف حرفة أو يجيد صنعة إلا أنه كان موسوعة في أمور الدنيا وأحوالها؛ كإلمامه بأمور الدين والعلم، لذا وجدناه ألف كتابا ذكر فيه صناعات أهل بلاده التي اشتهروا بها، وتحدث عن كل منها تحدث الخبير بها أو الممتهن لها، وذلك في كتابه المسمى: «بقاموس الصناعات الشامية».

---

(1) مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني د/ عبد الكريم رافق مقال نشر ضمن مجلة دراسات تاريخية تصدرها لجنة كتابة التاريخ بجامعة دمشق العدد الرابع ص ٣٠-٩٩ سنة ١٤٠١، ١٩٨١ بتصرف.

(2) مقدمة ظافر القاسمي لقواعد التحديث ص ٢٤

# المبحث الثالث

## الحالة العلمية

**الحالة العلمية:**

كانت الديار الشامية جزءًا من الإمبراطورية العثمانية في مطلع القرن الثالث عشر الهجري، وكانت معظم هذه الولايات الإمبراطورية الواسعة غارقة في لجج الجهل والأمية، فلا يكاد الواحد يجد في أي مدينة من المدن الواسعة - فضلاً عن القرية الضيقة- إلا أشخاصًا قليلين يعرفون القراءة والكتابة، وقد كانت سياسة هذه الدولة قائمة على الإبقاء على هذه الحالة الأليمة المحزنة من الجهل والأمية حفاظًا على سلطانها الغاصب، وحماية لعمَّالها الظالمين، وحرصًا على تماسك أجزاءها المفرقة باسم شعارات الدولة الإسلامية وباسم الخلافة الخلاب، وكل من شهد تلك الفترة المظلمة من حياة العرب في ظل الترك ظلوا يذكرون ما وقع فيها بكثير من الفزع والدهشة، فالعلم لا يلقن إلا في الكتاتيب والصحف - إن وجدت - وهو أقرب إلى نشرات الأخبار على نُدْرَةِ مَنْ يقرؤها، وفريق كبير من رجال الدين جنّد نفسه في خدمة أغراض الدولة الفاسدة يدعوا لها ويُكَفِّر من طالب بالإصلاح حتى في ظلها، فأغلقت العقول وحجر على الأفكار وعمَّت الأمية وانتشر الجهل، وما من داع ولا مجيب، وقد قامت سياسة هذه الدولة على تتريك جميع العناصر التي يظلها لواءها[1].

حتى لغة التدريس في المدرسة الثانوية الأميرية - المدرسة التي لم يكن في دمشق سواها - فقد كانت لغة التدريس فيها اللغة التركية، حتى نحو اللغة العربية وصرفها كان يُعَلَّم من كتب باللغة التركية؛ منها كتاب المشَّذّب الذي

---

(1) مقدمة ظافر القاسمي لكتاب «الدكتور صلاح الدين القاسمي - آثاره" - تقديم وتحقيق محب الدين الخطيب طبع المطبعة السلفية سنة ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩ م.

قررته نظارة المعارف العثمانية لمدارس الأناضول والروم إيلي، فكان مفروضا على مدارس الحكومة في الولايات العربية، استعماله أيضًا في تعليم أبناء العرب نحو لغتهم وصرفه بل كان معلم العربية شيخًا تركيًّا أرسل لتعليم العربية في عاصمة العروبة والإسلام التي كان يؤمها جرير والفرزدق ليعرضوا فيها بدائع بيانهم العربي، وقد اضطر النشؤ على تعلم اللغة التركية وإجادتها من أجل تولي الوظائف في الدولة العثمانية وليعيشوا في ظل القومية التركية مثقفين بثقافتها. أما العربية فلا تكاد تُعَلَّم يومئذ إلا في مدارس التبشير المسيحي والمدارس الطائفية غير الإسلامية بأساليب ركيكة ومنطق غير سليم[١]، وكان رجال الدين - إلاّ مَنْ عصم ربك - غارقين في الكتب التي ألفوها من متون الفقه وبعض كتب اللغة التي كانوا يسمونها (الآلة) فلا تفسير ولا حديث ولا دليل ولا برهان ولا إعمال للعقل ولا ترويض للفكر. أما العلوم الحديثة كالجغرافيا والتاريخ والهندسة والكيمياء والفيزياء فدراستها حرام وتدريسها كفر[٢]. أما الاجتهاد والقائلون ببقائه واستمراره فاسقون مارقون أو كافرون ملحدون ومن اتهم به ألفت له محاكم استثنائية وحوكم وحبس، وكان طريق السعاية بالخصوم واتهامهم بالحرية سواء كانت سياسية أم دينية وكانت تلقي من الحكام آذانا صاغية؛ لأن الحرية عدوهم الأول[٣] وهكذا كانت الحياة الثقافية مفقودة أو بالمفقودة أشبه، فلا مدارس ولا معاهد ولا جامعات والطباعة والصحافة ضعيفتان ليس فيهما أي غناء، والأمية منتشرة؛ لأن الدولة فرضت الجهل المطبق على الناس.

---

(1) مقدمة الشيخ محب الدين الخطيب لكتاب «الدكتور صلاح الدين القاسمي آثاره".

(2) منتخبات التواريخ لدمشق [ج ١ ص ٣٠١].

(3) مقدمة ظافر القاسمي لكتاب د/ صلاح الدين القاسمي آثاره.

وقد كان حال الحياة الدينية نتيجة طبيعية للحياة الثقافية، جمود على القديم، وكتب صفراء يتداولها الطلاب، ومتون كثيرًا ما يحفظونها بدون فهم، وحواشي وشروح وتقريرات وتعليقات تزيد في اضطراب عقول الطلاب وتشويهها وتقليد أعمى غُلت معه العقول؛ فكتب الحديث لا تقرأ إلا للتبرك وكتب التفسير ممتنعة عند العامة بل الخاصة، وأما كتب اللغة والأدب فقد كان يقرؤها الطلاب على أنها أداة لفهم الكتاب والسنة لا لذاتها، وكانت الطرق الصوفية في ذلك العصر في أوج انتشارها يعتنقها بعض رجال الدين ويجمعون العامة حولهم ويشغلونهم عن العمل النافع لإقامة المجتمع الإسلامي الصالح[١].

وقد قيد الله تعالى مجموعة من العلماء المخلصين الذين نحت الثقافة الدينية في بداية هذا القرن على أيديهم منحى جديدًا فتطورت الثقافة، ومالت إلى تبسيط العلوم، وتخلصت لغتها من التعقيدات، وكان من هؤلاء العلماء الذين دعوا إلى الإصلاح الشيخ طاهر الجزائري وشيخنا القاسمي..وغيرهم الكثير[٢].

ونخلص من هذا إلى أن شيخنا القاسمي كان من دعاة الإصلاح والعلماء المخلصين الغيورين على دينهم ولغتهم، فوقف موقف المدافع عن الدين واللغة بتأليف الكتب، وإلقاء الدروس والمحاضرات التي تدعوا إلى تلقي العلم والدين وتعلم اللغة العربية في وقت ساءت فيه الحياة العلمية والسياسية والاقتصادية.

وليس أدلّ على ذلك مما قاله الشيخ محب الدين الخطيب مبينًا دور القاسمي وموقفه من الناحية العلمية في هذا العصر المظلم فقال: «في هذا الجو نشأت أنا، ونشأ أخي النابغة العبقري - صلاح الدين القاسمي - لولا أن الله

---

(1) مقدمة ظافر القاسمي لقواعد التحديث ص ٢٢

(2) مقدمة تاريخ علماء دمشق ج ١ ص ٢٩

سبحانه وتعالى تداركنا فقيد لنا آباء روحيين أنقذونا من هذا الجو الخانق، وأقربهم إلى أخي صلاح الدين شقيقه الأكبر علامة الشام جمال الدين القاسمي وإخوان له في حلقة نورانية كانت تسمى حلقة الشيخ طاهر الجزائري»[1] رحمة الله عليهم جميعًا.

(1) مقدمة الشيخ محب الدين الخطيب لكتاب الدكتور صلاح الدين القاسمي وآثاره.